"تسليم نقديّ"

تخييل موضوعة(الجبل) في الرواية العربية
"الجازية والدراويش" لعبد الحميد بن هدوقة أنموذجا

Fictional mountain theme in the Arabic novel: Jazzya and Deviches" of Abelhamid Ben Haddouga as a model

أ. د. شفيع بن عبد الرحمان بالزين
Prof. Dr. Chafii Ben Abderrahman Bezzine
تونس/ جامعة قرطاج/ المعهد العالي للغات بنابل
قسم اللغة و الآداب و الحضارة العربية
Tunisia/ Carthage University
Higher Institute of Languages at Nabeul/ Department of Arabic Language, Literature and Civilization

chafi.bezzine@yahoo.fr

خضع البحث لبرنامج الاستلال العلمي
Turnitin - passed research

مُلَخَّصُ البحْث:

يتناول هذا البحث موضوع الجبل في الرواية العربية الحديثة فضاءً سرديًا متميزًا وإطارًا واقعيًا أو متخيلًا أو رمزيًا فاعلًا في بنيتها ودلالاتها وكونًا سرديًا متفردًا له مقومات مخصوصة يمكن أن ترقى بهذا النوع من الروايات إلى اكتساب صفة الجنس الفرعي الذي يوسم ب"رواية الجبل". ونبحث في هذه الجوانب بالاشتغال على رواية "الجازية والدراويش" للكاتب الجزائري عبد الحميد بن هدوقة. وتتشكّل ضمن تيمة الجبل سمات فنية وأبعاد دلالية مساهمة في بناء شعرية مميزة لرواية الجبل، لعل أبرز سماتها أن الجبل في الرواية مكون أساسي من مكونات الرواية فهو مشكل لعالمها وفضائها ومؤطر لأحداثها وموجّه لمسارها ومآلها وفاعل في نحت ملامح شخصياتها وأفعالها وعلاقاتها ومواقفها. وعلى محور الجبل تُطرح قضايا اجتماعية واقتصادية وثقافية وتتشكّل انطلاقا من عالمه جملة من الدلالات الرمزية. فالجبل في هذه الرواية فضاء أساسي تنتظمُ حولَه صورةٌ للعالَمِ تكوّن نَسَقًا إيديولوجيًّا متكاملاً ومنظمًا للعالَمِ يتّجهُ اتجاهًا عموديًا ويقوم على محورِ "أعلى- أسفل" وتتفرّع عنه ثنائياتٌ عديدةٌ ذاتُ دلالاتٍ أخلاقيةٍ واجتماعيةٍ وثقافيةٍ تقوم على تقابل معياري وتفاضلي بين الأعلى والأسفل فتسند إلى الأعلى أغلب القيم والدلالات الإيجابية وإلى الأسفل أغلب القيم والدلالات السلبية. وقد تفرعت عن ثنائية أعلى-أسفل تقابلات أخرى مثل التقابل بين الجبل والسهل أو بين الجبل والهاوية. ويقوم التقابل بين القرية الجبلية والقرية السهلية أو الحديثة على أساس ثنائيات عديدة من قبيل القديم/ الجديد والموجود/ المنشود والانغلاق/ الانفتاح والإقطاع/ الصناعة والرعوي/ الاشتراكي والتقليدي/ العصري والتخلف/ التقدم. . . الخ. وهو ما يدعونا إلى تنزيل هذه الرواية الجبلية ضمن السياق التاريخي لتكون تعبيرًا رمزيًا عن تبني الروائي الجزائري للمشروع التحديثي والحلم بالخروج من التخلف إلى بناء دولة الاستقلال والمجتمع الحديث وفي مواجهة الخرافة والعقلية التقليدية المتحجرة.

الكلمات المفاتيح: التخييل- المكان- الجبل- الرواية- أعلى-أسفل- الرمز- مشروع.

Abstract:

This research deals with the subject of the mountain in the modern Arabic novel. It is a distinct narrative space and a realistic, imaginary, or symbolic framework that is active in its structure and connotations. As a unique narrative universe grows with specific components that can rise to this type of novel to acquire the character of the sub-genre that is labeled "the mountain novel". The present study discusses these aspects in "Al-Jazia and the Dervishes" by the Algerian writer Abdel Hamid bin Haddouqa. Within the theme of the mountain, artistic features and semantic dimensions are formed and contribute to the construction of a distinctive poetry of the novel of the Mountain. On the axis of the mountain, social, economic and cultural issues are raised, and a number of symbolic connotations are formed from its world. The mountain in this novel is a basic space around which an image of the world is organized, which forms an integrated and organized ideological system for the world in a vertical direction and is based on the “up-down” axis. Many dichotomies with ethical, social and cultural connotations are branched from it and based on a normative and differential correspondence between the top and the bottom. So that most values and positive connotations are attributed to the top, and most negative values and connotations to the bottom. It stems from the top-down duality of other encounters, such as the encounter between the mountain and the plain or between the mountain and the abyss. The contrast between the mountainous village and the plain or modern village is based on many dichotomies, such as the old/new and existing/desired and closed/openness and feudalism/

industrial and pastoral/socialist and traditional/modern and regression /progress. . . etc. Such is to strike a historical context to be a symbolic expression of the Algerian novelist's adoption of the modernization. Since there is a dream of abandoning the underdevelopment to build a state of independence and modern society in the face of myth and the ossified traditional mentality.

Keyswords: fiction, place, mountain, novel, up-down, symbol, project

١. المقدمة:

ارتبطت حياة الإنسان منذ وجوده على وجه الأرض بمختلف التضاريس الطبيعية فتأثرت بها حياته الاجتماعية والاقتصادية والثقافية وتكونت في إطارها وبالتفاعل معها معتقداته وأساطيره وعاداته وتشكلت انطلاقا منها إنتاجاته الثقافية وإبداعاته الفنية وتعبيراته الجمالية والرمزية. ويمثل الجبل أحد أبرز العناصر الطبيعية التي ظلت حاضرةً وفاعلةً في الإبداع الإنساني بمختلف أشكاله وأنواعه. ويكفي أن نذكر جبال الألب والبيريني والأطلس والخمير لندرك مقدار ما تثيره هذه العوالم الجبلية في مخيالنا الفردي والجمعي من تصورات يتداخل فيها الجغرافي والتاريخي والأسطوري والديني والفولكوري. وهو ما يجعل الجبل يتجاوز المعطى الطبيعي الجغرافي (المكان المرتفع) إلى الحضور الأسطوري والتمثل الديني والثقافي والإبداع الفني بما يفسر حضوره المتميز والمتواصل في التعبيرات الثقافية عامة والإبداعات الفنية خاصة سواء كانت شعرا أو سردا، مكتوبة أو شفوية، عالمة أو شعبية. فالجبل بمعالمه المخصوصة وعوالمه الغامضة وطبيعته الوعرة المتوحشة فتح آفاقا واسعة للمخيال الشعبي والمتخيل الإبداعي لإنتاج ثقافة متنوعة يمكن الاصطلاح عليها ب"الثقافة الجبلية" وإبداع ضرب مخصوص من الكتابات الأدبية يمكن وسمها ب"الكتابة الجبليّة" أو "الكتابة الطبيعية" على حد تعبير كاترين لانون. فالجبل- كما ترى ماري مارتيني يسكن كوننا المتخيل إلى درجة أنه ليس واقعيا تماما وليس خياليا تماما. فما بين الواقع والأسطورة كان الجبل حاضرا دوما في الثقافة والإبداع (مقدمة "الجبل بين الصورة واللغة"). ويبقى الإبداع الأدبي أبرز مجالات حضور الجبل وأكثرها تمثلا له وتمثيلا. فهو مصدر إلهام متواصل للشعراء والروائيين ومكون من مكونات الفلكلور الشعبي حاضر في الحكايات والأشعار والأغاني والأمثال بل حتى في الأناشيد الوطنية (الجزائر). غير

أن الجبل مثلما ارتبط بدلالات إيجابية بوصفه رمزا للعلو والسمو والشموخ والإباء والحرية اكتسب في عصرنا دلالات سلبية حين أصبح ملاذا للإرهابين والمتطرفين ومسرحا للقتل والعنف (جبل الشعانبي بالقصرين).

ونظرا إلى انفتاح موضوع الجبل على مختلف الأشكال الثقافية والإبداعية حضر موضوع الجبل في الإبداع الأدبي وتجلياته بمختلف أشكاله وأجناسه ونصوصه. حضر في الأدب الغربي روايةً ("أسرار إيدولف" لغوتة- "ثلوج كليمينجارو" لهمنجواي) وشعرًا ("أغاني الجبل" لإدوارد) وحضر في الشعر العربي القديم (قصيدة ابن خفاجة في وصف الجبل) وفي الشعر الرومنطيقي (قصيدة "نشيد الجبار" للشابي) وفي الشعر المعاصر ("الجبل الأخضر" و"الجبال" لسيف الرحبي) وفي الرواية الحديثة والمعاصرة ("الجازية والدراويش" لعبد الحميد بن هدوقة – "جبل موسى" لعبد الرحيم بهير- "جبل قاف" لعبد الإله بن عرفة) وحتى في السيرة الذاتية (رحلة جبلية رحلة صعبة لفدوى طوقان). وذلك لأن الجبل جزء من المكان والمكان حاضن الوجود الإنساني وشرط وجوده وأكثر العناصر اختزالا للمفاهيم والتصورات واكتنازا للرموز والدلالات والمتخيل، وهو يتشكّل في صور مختلفة ويحضر في مختلف الأجناس الأدبية وخاصة منها الرواية لاتساع عالمها وتنوع فضاءاتها.

وعلى الرغم من أن هناك روايات عربية شهدت تعاملًا متميزًا مع المكان الذي خرج من مجرد إطار حاضن للشخصيات والأحداث إلى فاعل مؤثر فيها ومساهم في تشكّل بنية الرواية ودلالاتها، إلى جانب ما تكتسبه الرواية من قيم جمالية مستمدة من جماليات المكان، فإن الدراسات العربية لم تلتفت إلى أهمية المكان في صنع التخييل الروائي إلا مؤخرا وظلت إلى زمن قريب تهمل المكان الروائي وتعتبره أقل شأنا وفعلا في العمل الروائي واعتادت اعتباره إطارا سلبيا وضروريا للرواية مكتفية

بوصفه وصفا سكونيا جامدا (طوبوغرافيا). فلم يجد أغلب الدارسين في المكان الروائي ما يستوجب الدراسة النقدية أو يغري بها ولم ينسبوا إليه دورا بارزا في تطوير الأحداث أو تعقيدها أو حلها معتبرين دراسة المكان تنتمي إلى حقول معرفية أخرى تخرج عن إطار الرواية كالدراسات الجغرافية والبيئية والاجتماعية. وحتى الدراسات التي اهتمت بالمكان في الرواية نجدها تهمل كليا فضاء الجبل. فصلاح صالح وعبد الصمد زايد اهتما بمختلف الأمكنة وسكتا عن الجبل وكأنه ليس حاضرًا وفاعلًا في الرواية العربية. وحتى الفصل السادس الذي أفرده عبد الصمد زايد للمكان المتوحش لم يهتم فيه بالجبل ولم يقصد منه التوحش الطبيعي بل أفرده للفضاء اللبناني وقصد منه التوحش الحربي والطائفي. ولكن من حسن حظ الرواية العربية أن الدراسات المعاصرة قد تجاوزت هذا الإهمال أو التهميش وخصت المكان الروائي بالاهتمام الكافي وأقرت أن المكان مكون أساسي من مكونات الرواية، فهو مشكل لعالمها وفضائها ومؤطر لأحداثها وموجه لمسارها ومآلها وفاعل في نحت ملامح شخصياتها وأفعالها وعلاقاتها ومواقفها[1].

وقد تنوّعت الروايات في أشكالها وبناها واختلفت مضامينها ودلالاتها باختلاف المكان أو الفضاء الذي يشكل عالمها السردي (المدينة والريف، الجبل والسهل، البحر والصحراء، السجن والمنفى. . .)، بل ساهمت الأمكنة في إكساب الروايات العربية مقومات فنية ومضامين روائية مخصوصة سوغت للباحثين والنقاد إطلاق تسميات من قبيل "رواية البحر" (حنا مينة أنموذجا) أو "رواية الصحراء" (إبراهيم الكوني أنموذجا) أو "رواية الريف" (زينب" أنموذجا) أو "رواية السجن" (شرق المتوسط أنموذجا). . . الخ. غير أن النقاد أهملوا عالم الجبل بوصفه مكانًا أو فضاءً مشكلًا لعالم الرواية وفاعلا في بنائها ودلالاتها، على الرغم من أن هناك روايات

عربية عديدة يجمع بينها عالم الجبل بوصفه فضاءً روائيًا يؤطر أحداث الرواية ويؤثر في مسارها ويساهم في تشكيل ملامح الشخصيات ومواقفها وعلاقاتها أو بوصفه فضاء تخييليا تدور على محوره قضايا اجتماعية واقتصادية وثقافية أو تتشكل انطلاقا من عالمه جملة من الدلالات الرمزية[٢].

ومع اختلاف هذه الروايات من حيث شكل الكتابة واتجاهها (الواقعية-العرفانية) أو القضايا المعالجة والتجارب المسرودة، فإنها تأتلف في صلتها بعالم الجبل الذي ساهم في تشكيل جملة من المقومات والدلالات قد تجيز لنا الحديث عن جنس فرعي من أجناس الرواية يمكن الاصطلاح عليه ب"رواية الجبل". ونظرا إلى أهمية موضوع الجبل في هذه الروايات مقابل تجاهل الدراسات لها اخترنا رواية "الجازية والدراويش" للكاتب الجزائري عبد الحميد بن هدوقة لأنها، إضافة إلى ريادتها في هذا النوع من الكتابة الروائية، تتسم بجملة من الخصائص الفنية وتطرح من القضايا ما يجعلها أنموذجا لرواية الجبل فتتيح لنا تبين مقومات هذا الجنس الروائي وأبرز مضامينه وقضاياه.

٢. مقومات رواية الجبل من خلال "الجازية والدراويش":

يذهب يوري لوتمان في الفصل الذي وسمه ب "مشكلة المكان الفني" ضمن "جماليات المكان"[٣] إلى أن المكان الفني سواء في الشعر أو السرد يتشكل وفق ثنائيات متقابلة تهمنا منها ثنائية "أعلى-أسفل" بوصفها المحور الأساسي في رواية الجبل كما سنرى. وخلاصةُ ما جاء في مقاربةِ لوتمان أنّ المعانيَ والقيمَ والعلاقاتِ تأخذ سماتٍ مكانيةً أو تُسْتمَدّ منها وأنّ المكانَ (الجبل في بحثنا) عمادٌ تنتظمُ حولَه صورةٌ للعالَمِ تكون نَسَقًا إيديولوجيًّا متكاملاً ومن بين هذه الأنساقِ وأهمِّها نسقٌ مميَّزٌ لتنظيمِ العالَمِ

يتّجهُ اتجاهًا عموديًا ويقوم على محورِ "أعلى-أسفل" وتتفرّع عنه ثنائياتٌ عديدةٌ ذاتُ دلالاتٍ أخلاقيةٍ واجتماعيةٍ وثقافيةٍ. ويمكنُ تمثيلُ هذا النسقِ الذي ينتظمُهُ محور (عال- سفلي) في الجدول التالي:

سفلي: دلالات سالبة	**عال: دلالات موجبة**
بعيد-غريب	قريب
ضيق	متسع
سكون	حركة
عبودية	حرية
ثقافة	طبيعة
لا إبداع	إبداع
لا تآلف	تآلف
غير قيّم	قيّم
مادي	روحاني

ولنا أن نتساءل انطلاقا من هذه المقاربة كما يلخصها الجدول عن مظاهرِ تجلّي هذا المحورِ وكيفيةِ تَشكلِهِ روائيًّا في "الجازية والدراويش" وأثرِهِ في مُكوّناتِ الروايةِ ودلالاتِها وإلى أيّ مدًى يمكنُ أن نستخلصَ منه مقوّماتٍ وخصوصياتٍ تميّزُ روايةَ الجبل.

٢. ١. مركزية الجبل وأثره في مستوى الخطاب الروائي:

يشغل الجبل حيزًا مهمًا في رواية "الجازية والدراويش" فقد منحه عبد الحميد بن هدوقة في روايته دورًا فاعلًا لا يمكن لأيّ مكون آخر أن ينهض به. فالجبل هو مكان يضفي صفة على أبطال الرواية لا يمتلكونها دونه أو يسلبها من غيرهم. وتتجلى

أهميته ومنزلته في حضوره المكثف وآثاره العميقة وتعدد وظائفه التي يضطلع بها في هذه الرواية. فالجبل هو المكان الأساسي الذي تدور في إطاره الأحداث وتتحرك الشخصيات، ولذلك خصه الراوي بالوصف وتردد ذكره في مختلف مراحل الرواية. ومما جاء في وصفه: "عين جارية. أشجار من كلّ نوع. صفصاف يتحدى الهاوية. . . مناظر الجبل ملأت نفس المهاجر غبطة. الحياة هنا لم يفقدها بتولتها محرك ولا آلة ما تزال على حقيقتها الأولى"[٤]. وورد كذلك وصفه على النحو التالي: "كل شيء هنا ما زال يحيا في طفولته الأولى. الصفصاف شامخ الرأس إلى السماء وهو على الهاوية"[٥]. والجبل فضلا عن كونه فضاء متواترًا وصفُه يتجاوز حضورُه السمةَ المكانية ليكتسب بعدا زمنيا كما في قول السارد: "إنها تشبه أن تكون مسافة بين زمانين لا بين مكانين فهي بمثابة صعود مزدوج إلى الجبل وإلى الماضي"[٦] وذلك لأن الجبل في هذا الرواية يجمع بين الفضاء المكاني والفضاء التاريخي الذي يحفظ الذاكرة الجماعية ويظل مشدودا إلى الماضي أكثر من الانفتاح على الحاضر، ولعله يعكس الصراع بين الماضي المتحجر أو المترسخ والحاضر المتغير أو "المتعصر".

وتتجلى مركزية الجبل- فضلا عن كثافة وصفه وشموله المكان والزمان- في تجاوز حدود الإطار أو الفضاء المكاني الذي يحتوي الأحداث والشخصيات والأشياء ليكون فاعلا من الفواعل الروائية إذ يقدمه الكاتب في بداية الرواية على أنه من فواعل الرواية كما يلي: "قبل ميلاد الزمن كان الجبل، وكانت العين، وكان الصفصاف. ومع ميلاد الزمن، ولدت الجازية، والدراويش، و"السبعة"، والرعاة، والشامبيط"[٧]. فهو من جهة أولى فاعل في الشخصيات ومؤثر في تشكيل ملامحها ويظهر ذلك خاصة حين يقابل السارد بين الشخصيات الجبلية مثل والده: "أبي حر يرفض كلّ ما ليس جبليا"[٨]، والشخصيات "السهلية" أو المدينية فيقول عنهم على

لسان والده: "إن أياديهم البضة ووجوههم الطرية لتتأذى من سنبلة قمح أو شعاع من أشعة الشمس الجبلية المحرقة"[٩] ويقول له والده: "أنت لم تعد جبليا. إني أراك تذبل شيئا فشيئا. ما ينتظرك إن بقيت على هذه الحال هو السقوط"[١٠].

وللجبل أدوار أخرى مهمة يضطلع بها وتؤكد مركزيته منها بناء العلاقات بين الشخصيات فهي تتحدد كما ذكرناها حسب انتمائها إلى الجبل أو إلى المدينة (أو السهل) فتكون في علاقة اتصال أو انفصال أو حسب موقفها من الجبل فتكون متأصلة ومتجذرة فيه أو منبتة ومغتربة عنه، وتكون فاعلة أو مهمشة وتكون منتصرة أو منكسرة. ثم إن الجبل هو في الغالب من يوجه أفعالها وأعمالها وسلوكها وطرق تعاملها مع غيرها بما في ذلك الطقوس وآداب الضيافة ونوع الطعام. يقول السارد: "ضيافة مدنيين في قرية جبلية مشهورة بالأولياء ما عساها أن تكون إن لم تكن زردة؟"[١١]. وحتى بعض أسماء الشخصيات فإنه مشتق من الجبل ومنسوب إليه مثل "الجبايلي". بل إن لخيال الشخصيات بتأثير الجبل خصائص تميزه كالرحابة والخطورة: "انفتحت في خيالها الجبلي الصغير منافذ خطيرة لآفاق وردية رحبة"[١٢]. ولعل الأهم من ذلك أن فضاء الجبل يساهم على نحو حاسم في تحديد أدوار الشخصيات ومواقفها بل إنه أكثر من ذلك يقرر نهاياتها ومصائرها. من ذلك أن الشامبيط "انتهت به الطريق المعبدة في سفح الجبل. اضطر للرجوع إلى القرية السهلية"[١٣] وأما العايد فإن "الصعود إلى الجبل مرتين متتاليتين فقط يكرهه في كلّ شيء ويدفعه إلى العودة إلى أمريكا"[١٤] ولذلك اضطر إلى "ترك سيارته وأمتعته بالقرية السهلية المركزية واستأنف طريقه راجلا إلى الجبل. التوى به الطريق مصعدا دائما إلى أعلى. خيل إليه أنه كلما صعد زادت القرية ارتفاعا. أثناء صعوده المرهق شعر بالحاجة إلى الراحة. . . ثم استأنف عروجه"[١٥]. وأما الأحمر أحد أبطال الرواية فقد تحكم

الجبل في مصيره ونهايته وطريقة موته حيث "عثر على جثته أسفل عين المضيق. دفعه مجهول أو عثر. . سقط على صخرة"[١٦]. ففي رواية الجبل لا بد للأحداث أو أغلبها أن تدور على التنقل بين القرية الجبلية والمدينة صعودا ونزولا ووصف مخاطر الطريق وصعوبات العيش، ولا بد لمصائر أغلب الشخصيات ونهاياتها أن تكون مرتبطة بالجبل وتضاريسه الطوبوغرافية أو بيئته الاجتماعية وإن كان الموت نهاية الشخصية- شأن نهاية الأحمر والشامبيط في الجازية والدراويش- كان لا بد للموت أن يكون بطريقة "جبلية" سقوطا في الهاوية سواء كان سقوطا طبيعيا أو مفتعلا بفعل فاعل.

وفي رواية الجبل غالبا ما لا يبقى الجبل مجرد إطار مكاني أو فضاء روائي بل يتحول إلى قضية تشغل تفكير الشخصيات وموضوع أساسي من موضوعات الحوار داخل الرواية ومحور اختلاف الرؤى ووجهات النظر، ويكفي المقطع التالي شاهدا على منزلة الجبل من الحوار الروائي:

"حولت رأسها إلى جهة الجبل وسألتني:

-هل صعدت إلى الجبل؟

-مرة واحدة

-ماذا يرى من هناك؟

-الهاوية

-لا شيء إنما عندما يقف المرء على القمة يشعر بالغبطة.

-وتقول لا شيء. ماذا في الحياة غير الغبطة؟

-صعّد الأحمر نظره. . : ماذا يشد السكان إلى هذا الجبل؟

-الجبل نفسه"[١٧].

وإذا كان حضور الجبل حضورًا مكثّفًا وفاعلًا في الفضاء والشخصيات والأحداث أمرا "مفروضًا" أو "طبيعيًا" في رواية تتخذ من الجبل المكان المركزي الحاضن لعالم الرواية فإنه من الطريف والجمالي أن تتجاوز فعالية الجبل المكونات الروائية المذكورة إلى الخطاب الروائي نفسه ولغته التي بها تشكل. إن ما ساهم في شعرية رواية الجبل وأكسبها خصوصية جمالية أن الجبل في "الجازية والدراويش" "مرجع" أساسي مساهم في تشكّل اللغة الروائية ومعين معجمي مدّها بمفردات وتعبيرات مستقاة من عالم الجبل وسجلاته وصوره والطريف أن هذه اللغة شاملة للشخصيات والسارد معا. أما لغة الشخصيات فوصفت كما يلي: "كلمة جبلية تساوي سنة جامعية. المنطق الجبلي لا تعرف صرامته آذان المدينة. خلق من الصخر نحتته قرون التعب والجوع والضباب. "[١٨]. ويقول السارد عن لغة الجبايلي (واسمه نفسه اشتقاق جبلي): "أكد ابن الجبايلي قول عايد بأسلوبه الجبلي: صحيح الهاوية الحقيقية هي أفكار الناس لأنها ليست لها عروق في الأرض. استعذب عايد تعبير الرجل"[١٩]. وأما لغة السارد الجبلية فتبدو مثلا في الشواهد التالية:

- **تسمو** به إلى **عظمة** المسؤولية. [٢٠]

- بقيت في سمعي ضحكاته **عالية**[٢١].

- بسمتها **ترتفع** بالنفس إلى **البعيد** من السدم. [٢٢]

- أحاديث عذبة رقراقة **سما بها** الحنين والشوق إلى مستوى الأساطير. [٢٣]

- إذا تحدث السكان عن بطولاتهم تحدثوا ببساطة **وتواضع** مذهلين مع أنهم **سموا** ببطولاتهم إلى مستوى المثل السائر. [٢٤]

- عرفته **وشمس الجبال** لم تشرب بعد ماء شبابها[٢٥].

- ثم أطلقتها في سحابة **معرجة إلى السماء** تساءلت وعيناها تتابعان **عروج** الدخان[٢٦].

فما تدل عليه هذه الأقوال المسندة إلى الراوي هو تسرب تضاريس الجمل وطوبوغرافيته إلى لغة السرد لتطبعها بطابعه المخصوص ويصبح الجبل مادة لغوية تصنع نظام السارد التمثيلي والتخييلي فحديثه عن أفعال الشخصيات وأفكارهم وأحاديثهم مبني على أساس الاتجاه المكاني أسفل-أعلى (تسمو- ترتفع- سما- تواضع- سموا- معرجة- عروج. . .) وهذه المفردات في الغالب استعارات مكانية أو اتجاهية يتصور من خلالها السارد ويفهم ما يصدر عن الشخصيات من أفعال وأقوال وأفكار ومشاعر من خلال أو بواسطة مجال آخر هو المكان وتحديد الجبل أو الاتجاه أسفل-أعلى وبتشغيل تمثلات ومقولات ذهنية مثل "السعادة فوق" و"الشقاء تحت"، و"الوعي فوق" و"اللاوعي تحت"، و"الصحة والحياة فوق" و"المرض والموت تحت"، والهيمنة والقوة فوق" و"الأقل تحت"، و"النخبة فوق" و"الأغلبية تحت"، و"الجيد فوق" و"الرديء تحت" و"الفضيلة فوق" والرذيلة تحت"، و"العقلاني فوق" والوجداني تحت". . . الخ[٢٧]. ولئن كانت بعض هذه الاستعارات الفضائية لا تتماشى مع النسق الاستعاري المتحكم في رواية الجبل كما تدل عليه "الجازية والدروايش" مثل و"الوعي فوق" و"اللاوعي تحت" و"النخبة فوق" و"الأغلبية تحت"، و"العقلاني فوق" والوجداني تحت"، فإن أغلب الاستعارات النسقية الاتجاهية أو الفضائية تتلاءم مع هذه الرواية أكثر من غيرها لأنها فضلا عن نسقها السردي والدلالي المبني على ثنائية أعلى-أسفل تقوم على تقابل معياري وتفاضلي بين الأعلى والأسفل فتسند إلى الأعلى أغلب القيم والدلالات الإيجابية وإلى الأسفل أغلب القيم والدلالات السلبية. وتتشكل هذه اللغة استعاريا

من خلال استعارة "الزمان فضاء" فيستدعي الجبل استعارة يعبر بها عن القدم والزمان الماضي (عرفته وشمس الجبال لم تشرب بعد ماء شبابها). ولئن كان جورج لايكوف ومارك جونسن يرى أن الاستعارة الاتجاهية أعلى-أسفل أو فوق-تحت استعارة مركزية في نسقنا الذهني التصوري عامة تحكم تصوراتنا ومفهمتنا لتجاربنا ومعانيها[٢٨] فإن هذه كثافة حضور هذه الاستعارة في الرواية ليس راجعا إلى هذا العامل الثقافي والذهني العام فحسب بل يعود كذلك إلى ارتباط الرواية بعالم الجبل بوصفه عالما فضائيا مبنيا على اتجاه ثنائي أساسي هو أعلى- أسفل. ولذلك فليس حضور المكان أو ثنائية أعلى-أسفل مقصورة على هذه الاستعارات وإنما تتشكل في الرواية شبكة العلاقات والدلالات على أساس ثنائية الأعلى والأسفل التي تتواتر وتتكثف وتتفرع عنها ثنائيات أخرى كالارتفاع والانخفاض أو الصعود والنزول أو السماء والأرض. وفي الرواية شواهد متنوعة على كثافة حضور ثنائية أسفل-أعلى سواء في الوصف كقوله السارد: "الصفصاف شامخ الرأس إلى السماء وهو على الهاوية"[٢٩] أو في السرد كقوله: "التوى به الطريق مصعدا دائما إلى أعلى. خيل إليه أنه كلما صعد زادت القرية ارتفاعا"[٣٠] أو في الحوار كما في الشواهد التالية:

- قال لها: انظري إلى الجبل. إنه عال أليس كذلك؟ الناس يصعدون إليه إذا أرادوا بلوغ قمته لا يهبطون. كذلك نحن حياتنا في دشرتنا صعود ليست هبوطا. [٣١]

- الماء يهبط من الجبل لا يصعد إليه. [٣٢]

- المشكلة ليست في الهبوط إلى المدينة إنما الصعود بالمدينة إلى الدشرة هو المشكلة. [٣٣]

وما يلاحظ في ثنائية أعلى-أسفل المستقطبة للخطاب الروائي وصفا وسردا وحوارا في هذه الشواهد وغيرها- وهو وجه من وجوه شعرية السرد الجبلي- أنها تتخذ دلالتين متداخلتين: دلالة حرفية حقيقية حين تتعلق ثنائية أعلى-أسفل

بالمجال المكاني وتقتصر على الاتجاه الفضائي سواء تعلق الأمر بانتقال الشخصيات من/ إلى الجبل صعودا أو نزولا، أو تعلق بالمقابلة بين ارتفاع القرية الجبلية (الدشرة) وانخفاض المدينة السهلية، ودلالة مجازية/ استعارية أو رمزية مثل ارتفاع الصفصاف الذي يرمز إلى الشموخ وانتماء أهل الدشرة إلى الجبل بوصفه رمزًا للانتماء والتجذر في التاريخ والأصالة والعراقة مقابل اعتبار المدينة في هبوطها وانخفاضها رمزا للتفسخ والانبتات، وهو ما يحيلنا على بعض ما توصلت إليه الدراسات العرفانية للاستعارة حين أثبتت أن من بين الاستعارات الأكثر شيوعا ورسوخا الاستعارات الفضائية أو المكانية المبنية على ثنائية الأعلى-الأسفل كما بينا أعلاه.

وتفرعت عن ثنائية أعلى-أسفل ثنائيات أو تقابلات أخرى مثل تشكل الفضاء على أساس التقابل بين الجبل والسهل أو بين الجبل والهاوية، واللافت للاهتمام في رواية "الجازية والدراويش" أنها لا تقابل بين القرية والمدينة كما هو معتاد في الروايات العربية بل تقابل بين القرية الجبلية والقرية السهلية أو الحديثة على أساس ثنائيات تقابلية عديدة من قبيل قديمة/ جديدة، موجودة/ منشودة، منغلقة/ منفتحة، إقطاعية أو رعوية أو بدائية/ صناعية أو اشتراكية أو عصرية، متخلفة/ متقدمة. . . الخ. وانطلاقا من بنية الفضاء الجبلي القائمة على تقابل متضاد بين الجبل والسهل أو القرية والمدينة يمكن اختزال هذه الثنائيات المتقابلة في الجدول التالي:

سكان الجبل= المنشود- الملاذ	سكان السهل (أو القرى أو المدن)= المكان المرفوض
غلظة وشدة	لين ورخاوة
نزعة يقينية وتعليمية	نزعة تساؤلية وحوارية
غيبيات	علم
ثبات	حركة
الماضي	الحاضر والمستقبل

٢. ٢. مركزية الجبل وأثره في مستوى الحكاية:

يتحول الجبل في رواية "الجازية والدراويش" إلى محور الصراع أو موضوع البرنامج السردي. فهو من جهة أولى مجال مركزي للفعل والصراع والتحدي والمغامرة ورغم أن فعل الصعود إلى الجبل مسندًا إلى البطل فعل عادي ومألوف بالنسبة إلى أهل الدشرة فإن السارد يقول عنه "إن أتعابه المرهقة في الصعود إلى الدشرة زالت في لحظة. هو يشعر الآن أنه قادر على أن يصعد إلى هنا عشر مرات متتاليات مقابل نظرة واحدة لهذا الوجه البديع المشرق. "[٣٤] ويقول عنه كذلك: "ما إن التقى به حتى أخذ يثبطه عن الصعود إلى الدشرة. . . رآه مصمما على بلوغ القرية الجبلية مهما كان التعب"[٣٥]. وفي هذين القولين ما يوحي بأن الصعود إلى الجبل وإن كان فعلا عاديا فإنه في رواية الجبل يتحول إلى إنجاز مهم وجزء أساسي من برنامج البطل السردي مما يجعله مقترنا باكتساب قدرة أو كفاءة تؤهله لإنجاز برنامجه (هو يشعر الآن أنه قادر على أن يصعد إلى هنا) ويجعله "مصمما على بلوغ القرية الجبلية" كما يدفع الشخصية المعارضة أو "الضديد" إلى محاولة إفشال برنامجه ومنعه من

الصعود. ويتجاوز فعل الصعود البعد الإنجازي بوصفه الفعل الرئيسي المحقق لبرنامجه إلى اكتساب دلالات عاطفية لارتباطه بالنظر إلى وجه الجازية الجميل أو بدلالات نفسية أو أخلاقية بوصفه تعبيرا عن رغبة البطل في إثبات جدارته بالانتماء إلى الجبل وإعادة تجذره في بيئته القروية الجبلية بعد أن بدأت تضعف أو تصبح محل شك ونفي لدى والده بسبب وجوده في المدينة.

واعتمادا على أنموذج غريماس العاملي وانطلاقا من مفهوم البرنامج السردي يمكن أن نعتبر أن ما يميز "الجازية والدراويش" بوصفها رواية الجبل- من هذا المنظور- أن الجبل هو مجال للصراع بين مشروعين أو برنامجين سرديين: برنامج الطلبة/ الشامبيط (البرنامج المديني) المتمثل في بناء سد لتجميع مياه الجبل وإقامة مشروع زراعي ونقل سكان الدشرة إلى قرية سهلية حديثة يقابله برنامج البطل وسكان الجبل الرافض لهذا المشروع المتمسك بالبقاء في الدشرة الجبلية: يقول الراوي ملخصا هذين البرنامجين المتعارضين: "لا يمكن الشروع في أي بناء والدشرة قائمة في رأس الجبل. . . إذا بني السد فلن تضيع بعد ذلك مياه الجبال سيعم الخصب وتحيا عيون السهل وتصبح الأراضي كلها سقوية. لكن السكان ردوا بأن الماء لا يمكن أن يتجمع في سد هناك المياه كلها تغيض تحت الصخور في قرارات قصوى"[٣٦] ويقول كذلك عن البرنامج الأول: "الطلبة لم يكن يهمهم انتقال السكان من قرية إلى أخرى بقدر ما كان يهمهم انتقالهم من الماضي إلى المستقبل. في نظر الطلبة انتقال السكان إلى قرية سهلية يسهل اتصالهم بغيرهم ويضاعف من حاجاتهم إلى أشياء الحياة الحديثة وهو بالضبط ما لم يتسع له فضاء الدشرة"[٣٧]. وفي إطار هذا الصراع بين البرنامجين يشغل الجبل حيزا مهما من أحداث الرواية ويحتل مكانة مركزية ضمن سيروتها بوصفه المشكل الرئيسي وكذلك بوصفه الحل الممكن، بل إنه يتجاوز

الحضور الواقعي إلى الحضور الحلمي حيث يقول السارد/ البطل: "أقتلع أحلام الماضي أرمي بها على صخور الدشرة. . . أرمي إلى الهاوية البررة والفجرة"[٣٨] ويقول عن غيره: "تحدث عن عيون تسيل إلى أعلى"[٣٩].

٣. ٢. مركزية الجبل في مستوى الدلالة الرمزية:

يتميز المكان في الرواية الحديثة بما في ذلك الرواية الواقعية الاشتراكية- شأن رواية "الجازية والدراويش"- بتحميله دلالات رمزية فضلا عن دلالاته الواقعية. . .

ونظرا إلى ما يشغله الجبل في رواية "الجازية والدراويش" من مكانة مركزية وما ينهض به من وظائف وأدوار متعددة فإنه قد اكتسب نتيجة لذلك أبعادا ودلالات رمزية غالبا ما ترد صريحة ومكشوفة على لسان الشخصيات أو على لسان السارد. ونظرا إلى اختلاف الرؤى والمواقف من الجبل باختلاف مواقع الشخصيات وعلاقتها به وحسب موقعها من البرنامج السردي فإن الجبل يكتسب دلالتين رمزيتين متعارضتين: فمن وجهة نظر الشخصيات المنتمية إلى الجبل (الجازية- الأب- الأم- الدراويش. . .) تسند إلى الجبل دلالات رمزية إيجابية يغدو من خلالها رمزا للأصالة والتراث والتجذر والقدامة والعزة والإباء والتاريخ الحافل بالأمجاد (الثورة- الصمود). يقول الأب مثلا: "لو أكون في السماء لكفاني أن أغمض عيني لأجد نفسي هنا في الجبل. أنت وأمثالك لا تفهمون شيئا لحياتنا. . للإنسان جذور تربطه بالأرض كالشجرة"[٤٠] ويقول لابنته وهو "يشير إلى الجبل والجبل والصفصاف": "انظري إلى الجبل. إنه عال أليس كذلك؟ الناس يصعدون إليه إذا أرادوا بلوغ قمته لا يهبطون. كذلك نحن حياتنا في دشرتنا صعود ليست هبوطا"[٤١]. ويقول: "يعتقدون أن دشرتهم لم تلدها الثورة بل هي التي ولدت

الثورة"[٤٢]. وتقول الأم لابنها: "لكل شيء يا بني عروق تربطه بالأرض حيث لا عروق لا شيء سوى الهاوية"[٤٣]. وحين أراد السارد أن يقنع والده بأن قريتهم القديمة "معتمة دوما بالضباب تنعدم فيها الرؤية" أجابت أمه: "الشجرة لا تهرب من عروقها"[٤٤]. ويقول أحد الدراويش كذلك: "الماء يهبط من الجبل لا يصعد إليه. . . نحن نصارع الطبيعة وأنتم تتصارعون فيما بينكم"[٤٥]. وللجبل في الرواية دلالة أخرى ذات صلة بالدلالة السابقة وهي حضور الجبل في سياقات عديدة من الرواية رمزا للطبيعة البكر وزمن البدايات. يقول السارد: "الحياة هنا لم يفقدها بتولتها محرك ولا آلة ما تزال على حقيقتها الأولى"[٤٦]. ويقول: "كل شيء هنا ما زال يحيا في طفولته الأولى. الصفصاف شامخ الرأس إلى السماء وهو على الهاوية"[٤٧] ويقول: "الزمان فيها منعدم". ويقول على لسان أمه: "لكل شيء يا بني عروق تربطه بالأرض حيث لا عروق لا شيء سوى الهاوية"[٤٨]. وفي هذا السياق الدلالي الرمزي تتشكل صورة القرية الأم مكانا منشودا وحنينا إلى البدائية وعالما مليئا بالسعادة والبساطة والحرية والوضوح والتناسق مع الطبيعة ومع الزمن الكوني والمكان البكر[٤٩] وهذه الصورة هي التي تبرر تعلق الشخصيات بالقرية الجبلية وافتتانها بالجبل افتتانا بلغ ببعض الشخصيات مبلغ الهوس فأخذتها روعته وأسلمت له القياد مبهورة بالارتفاع والشموخ والبكارة ومازجة الواقع بالخيال والأسطورة والغيب مما ضاعف من سحر المكان الجبلي وأكسبه مسحة من الغموض والجاذبية والرهبة والغرابة. وهذا ما يبرر كذلك أن الشخصيات "الجبلية" أو المنبهرة بالجبل بدل الصراع والنضال من أجل تغيير ملامح المكان (البكر) وإخضاعه لحاجات الحياة الحديثة نجدها تبحث عن الإبقاء على القرية ونقل سكانه إلى مكان آخر. وهذا ما يسوغ لنا أن قضية الجبل هنا والمكان عامة تطرح بطريقة مختلفة عن السائد في الروايات العربية، فإذا كانت

جل الأمكنة في الروايات العربية مشكلتها أنها "اعتراها داء التغيير"[٥٠] فإن مشكلة المكان في هذه الرواية أنه أبى التغير والانفتاح ومواكبة التطور والتحديث.

ولا تقتصر دلالة الجبل الإيجابية من وجهة نظر هذه الشخصيات على الماضي التاريخي بل تتجاوزه إلى الزمن الحلمي والخيالي فارتفاع مكان القرية وتحصنها ضد المتغيرات وغزو المدنية يجعلها عالما محملا بدلالات الحلم والخيال والسمو والسعادة. تحضر هذه الصورة الرمزية في ذهن عايد بطل الرواية: "عايد استأنف طريقه صاعدا إلى هذه الدشرة- الحلم"[٥١] كما تحضر في ذهن صافية: "إنها تمثل العلو الذي يرنو إليه كلّ حالم"[٥٢]. هذا في مستوى السرد، وأما الحوار فإنه المجال الأساسي الذي تتشكل في سياقه صورة الجبل رمزا للحلم والمطلق والغبطة القصوى، وفي الأقوال التالية شواهد على هذه الرمزية:

– الحياة المتناهية في الأرضية هي التي في حاجة إلى علو. وإلا ماذا يبقى من معنى الحياة؟

-لا شيء إنما عندما يقف المرء على القمة يشعر بالغبطة.

-وتقول لا شيء. ماذا في الحياة غير الغبطة؟[٥٣]

وأما وجهة نظر الشخصيات المعارضة أو التي تتبنى البرنامج السردي النقيض وهوالبرنامج التحديثي كما يمثله الشامبيط والطلبة، فإنها تصور الجبل والدشرة التي تنتمي إليه تصويرا مناقضا للصورة الأولى وتحملهما دلالات رمزية سلبية. فالجبل من هذا المنظور رمز للماضي والعقم والتخلف والانغلاق وانسداد الآفاق (الضباب، الغيم. .) والغيب والخرافة والأسطورة مقابل السهل والقرية الجديدة اللذين يرمزان للخصوبة والانفتاح والتقدم والتقنية والواقع والعقل. . . يقول

السارد: "المشكلة ليست في الهبوط إلى المدينة إنما الصعود بالمدينة إلى الدشرة هو المشكلة. كلّ خطوة نحو الدشرة ينبغي أن تقع فوق أختها كالبناء. والصعود إلى الدشرة بالمدينة بناء. لكنه لا يتحمل ثقل المستقبل لذلك لا بد من بناء قرية جديدة. أبي في الحقيقة جزء من الدشرة ومن الجبل. هو والسكان حياتهم مؤسسة على ماض سحيق فكل تغيير جذري يستلزم تلغيم الماضي"[٥٤]. ويقول: "قلت في نفسي سوف يتضح هذا الأفق لا محالة عندما ينقشع الغيم المتراكم عبر القرون على قمة الجبل"[٥٥]. ويقول: "أنا أيضا كنت واهما قلت للجازية ذات يوم نغرس وردا في قمة الجبل. . لم أفكر أن القمة لا تنبت سوى الضباب. الحياة ليست هناك. الجلمود لا يخصب. ما يسقط من أشعة عليه لا يغذي شيئا. يسجل حياة الجبل ليس إلا. وحياة الجبل ما قيمتها تطول أو تقصر؟ البذر يصلح في الأراضي السفلية السهلية حيث الخصب والملايين البشرية المتصارعة على اللقمة"[٥٦]. ويقول: "إنها تشبه أن تكون مسافة بين زمانين لا بين مكانين فهي بمثابة صعود مزدوج إلى الجبل وإلى الماضي"[٥٧]. أما "الأحمر" الطالب وهو الشخصية الرئيسية التي تمثل هذا الموقف وتعبر عنه بوضوح فيقول: "هذه الدشرة يمثلها ثلاثة عقام: الجامع والجبل والصفصاف"[٥٨] ويقول: "ماذا يمثل غير العقم؟ إن العلو لا تحتاجه الحياة الأرضية" ويعلق على هذا الموقف السارد الذي كان أميل إلى تبني وجهة نظره بقوله: "حدسه ينفذ إلى المجهول بسرعة مذهلة. في لحظة نفذ إلى أعماق القرية: العقم. دهور طويلة عاشتها في صراع عقيم مع الطبيعة. لم يخرجها صمودها من الضباب. بل زاده كثافة قيمها عوائدها طريقة حياتها لم تتغير. احتفظت بزمن قديم لتحيا فيه إلى الأبد"[٥٩].

٣. الخاتمة:

لئن اختلف الروائيون العرب في تمثلاتهم لفضاء الجبل وطرائق بنائه وتوظيفه روائيًا باختلاف السياق التاريخي (الاستعمار- مرحلة الاستقلال. . .) أو جنس الكتابة الإبداعية (الرواية- المسرح. . .) أو الرؤية الفكرية والجمالية (اشتراكية- وجودية- عرفانية. . .). فإن الجبل قد شكّل في الرواية العربية الحديثة فضاءً سرديًا متميزًا وإطارًا واقعيًا أو متخيلًا أو رمزيًا فاعلا في بنيتها ودلالاتها وكوناً سرديًا متفردًا له مقومات مخصوصة يمكن أن ترقى بهذا النوع من الروايات إلى اكتساب صفة الجنس الفرعي الذي يوسم ب"رواية الجبل". ولعل أبرز ما يلفت الاهتمام في هذه السمات- انطلاقا من اشتغالنا على رواية "الجازية والدراويش" لعبد الحميد بن هدوقة أن تمثل الروائي للجبل بقدر ما استمدت مكوناته ودلالاته العامة من الذاكرة الثقافية الجماعية والسياق التاريخي اكتسب سمات ودلالات جديدة وربما مغايرة للذاكرة ومفارقة للواقع بفعل اشتغال المتخيل الروائي والتوظيف الرمزي. وهو ما نشأت عنه أشكال من التفاعل بين الواقع والمتخيل، وبين الذاكرة والإبداع أفضت إلى تجربة روائية متميزة ولكن مؤسسة ضمن تيمة الجبل سمات عامة ومقومات مشتركة مع روايات الجبل وعناصر شبه قارة ترتقي إلى بناء شعرية خاصة برواية الجبل. ولعل من أبرز الملامح الدالة على هذه الشعرية أن الجبل في الرواية مكون مهم وأساسي من مكونات الرواية مشكل لعالمها وفضائها ومؤطر لأحداثها وموجه لمسارها ومآلها وفاعل في نحت ملامح شخصياتها وأفعالها وعلاقاتها ومواقفها. ففي رواية "الجازية والدراويش" شأن روايات الجبل عامة يتشكل الجبل فضاء تخييليا تدور على محوره قضايا اجتماعية واقتصادية وثقافية وتتشكل انطلاقا من عالمه جملة من الدلالات الرمزية. وقد تبين لنا انطلاقا من المقاربات النظرية (لوتمان- باشلار)

ومن استقراء الرواية أن الجبل فضاء أساسي تنتظمُ حولَه صورةٌ للعالَمِ تكوّن نَسَقًا إيديولوجيًّا متكاملاً ومن بين هذه الأنساقِ وأهمِّها نسقٌ مميَّزٌ لتنظيمِ العالَمِ يتّجهُ اتجاهًا عموديًا ويقوم على محورِ "أعلى-أسفل" وتتفرّع عنه ثنائياتٌ عديدةٌ ذاتُ دلالاتٍ أخلاقيةٍ واجتماعيةٍ وثقافيةٍ. وهذا النسق الذي انتظم الرواية (عال- سفلي) يجعل أغلب الاستعارات النسقية الاتجاهية أو الفضائية تتلاءم مع هذه الرواية أكثر من غيرها لأنها فضلا عن نسقها السردي والدلالي المبني على ثنائية أعلى-أسفل تقوم على تقابل معياري وتفاضلي بين الأعلى والأسفل فتسند إلى الأعلى أغلب القيم والدلالات الإيجابية وإلى الأسفل أغلب القيم والدلالات السلبية. وقد تفرعت عن ثنائية أعلى-أسفل ثنائيات أو تقابلات أخرى مثل تشكل الفضاء على أساس التقابل بين الجبل والسهل أو بين الجبل والهاوية، واللافت للاهتمام في رواية "الجازية والدراويش" أنها لا تقابل بين القرية والمدينة كما هو معتاد في الروايات العربية بل تقابل بين القرية الجبلية والقرية السهلية أو الحديثة على أساس ثنائيات تقابلية عديدة من قبيل قديمة/ جديدة، موجودة/ منشودة، منغلقة/ منفتحة، إقطاعية أو رعوية أو بدائية/ صناعية أو اشتراكية أو عصرية، متخلفة/ متقدمة. . . الخ.

وللجبل أدوار أخرى مهمة يضطلع بها وتؤكد مركزيته منها بناء العلاقات بين الشخصيات فهي تتحدد كما ذكرناها حسب انتمائها إلى الجبل أو إلى المدينة (أو السهل) فتكون في علاقة اتصال أو انفصال أو حسب موقفها من الجبل فتكون متأصلة ومتجذرة فيه أو منبتة ومغتربة عنه، وتكون فاعلة أو مهمشة وتكون منتصرة أو منكسرة، بل يتحول إلى قضية تشغل تفكير الشخصيات وموضوع أساسي من موضوعات الحوار داخل الرواية ومحور اختلاف الرؤى ووجهات النظر، والأطرف من ذلك أن تتجاوز فعالية الجبل المكونات الروائية المذكورة إلى الخطاب

الروائي نفسه ولغته التي بها تشكل. فهو الذي يشكّل اللغة الروائية ويمدها بمعين معجمي مفردات وتعبيرات مستقاة من عالم الجبل وسجلاته وصوره والطريف أن هذه اللغة شاملة للشخصيات والسارد معا.

وحين نظرنا في حضور الجبل وأثره في الحكاية وجدنا أن الجبل في رواية "الجازية والدراويش" هو محور الصراع أو موضوع البرنامج السردي. فهو من جهة أولى مجال مركزي للفعل والصراع والتحدي والمغامرة. واعتمادا على أنموذج غريماس العاملي وانطلاقا من مفهوم البرنامج السردي وجدنا أن ما يميز "الجازية والدراويش" بوصفها رواية الجبل- من هذا المنظور- أن الجبل هو مجال للصراع بين مشروعين أو برنامجين سرديين: برنامج انفصالي متمثل في بناء سد لتجميع مياه الجبل وإقامة مشروع زراعي ونقل سكان الدشرة إلى قرية سهلية حديثة يقابله برنامج اتصالي يمثله البطل وسكان الجبل الرافض لهذا المشروع المتمسك بالبقاء في الدشرة الجبلية. وفي إطار هذا الصراع بين البرنامجين شغل الجبل حيزا مهما من أحداث الرواية واحتل مكانة مركزية ضمن سيروتها بوصفه المشكل الرئيس وكذلك بوصفه الحل الممكن، بل إنه تجاوز الحضور الواقعي إلى الحضور الحلمي.

وفي المستوى الدلالي الرمزي تبين لنا أن الجبل في رواية "الجازية والدراويش"- محمّل بدلالات رمزية فضلا عن دلالاته الواقعية. وقد ميزنا دلالتين رمزيتين متعارضتين: فمن وجهة نظر الشخصيات المنتمية إلى الجبل اكتسب الجبل دلالات رمزية إيجابية غدا من خلالها رمزا للأصالة والتراث والتجذر والقدامة والعزة والإباء والتاريخ الحافل بالأمجاد، وأما وجهة نظر الشخصيات المعارضة أو التي تتبنى البرنامج السردي النقيض وهو البرنامج التحديثي كما يمثله الشامبيط والطلبة، فإنها صورت الجبل والدشرة التي تنتمي إليه تصويرا مناقضا للصورة الأولى وحملها

دلالات رمزية سلبية. فالجبل من هذا المنظور رمز للماضي والعقم والتخلف والانغلاق وانسداد الآفاق (الضباب، الغيم. .) والغيب والخرافة والأسطورة.

وما يجدر أن نخلص إليه في خاتمة البحث في شعرية رواية الجبل أن "الجازية والدراويش" مثّل العديد من الروايات حين قرئت إيديولوجيًا وفكريًا في علاقة بالاتجاه الواقعي الاشتراكي بوصفها تعبيرا عن رؤية اشتراكية يسارية تعالج قضية اصطدام المشروع التنموي الاشتراكي في الجزائر بالعوائق الثقافية والبيئية والاجتماعية أدى ذلك إلى حجب شعريتها أو على الأقل جانب أساسي من شعرية تستمدها من الفضاء الجبلي واشتغال الكاتب عليه أدى ذلك إلى حجب شعريتها أو على الأقل جانب أساسي من شعرية تستمده من الفضاء الجبلي واشتغال الكاتب عليه جماليا أو فنيا ودلاليا أو رمزيا فضلا عن الاشتغال الفكري والإيديولوجي مما أسكب الرواية مقومات بها تشترك مع روايات الجبل عامة وتتميز عن الرواية الواقعية الاشتراكية في آن واحد، وهو نفس التميز الذي حققه حنا مينة حين أبدع أغلب رواياته الواقعية الاشتراكية في إطار فضاء البحر.

هوامش البحث:

١) نذكر من الدراسات التي أفردت لموضوع المكان في الرواية العربية: عبد الصمد زايد: المكان في الرواية العربية الصورة والدلالة (كلية الآداب منوبة/ دار محمد علي تونس، ٢٠٠٣) وصلاح صالح: قضايا المكان الروائي في الأدب المعاصر (دار شرقيات للنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٩٧) وياسين النصير: الرواية والمكان (العراق، ١٩٨٠). وأحدث دراسة في نظرنا هي أطروحة الدكتورا التي أنجزها الميلود حاجي بعنوان "المكان في الرواية: بحث في قصصية المكان" (زينب للنشر، ٢٠٢٠). أما الدراسات التي اهتمت بأنواع معينة من الأمكنة والفضاءات في الرواية العربية فنذكر: عبد السلام العيساوي: البحر في أدب حنا مينة (مرقون، كلية الآداب، منوبة، تونس) ومحمد حسن عبد الله: الريف في الرواية العربية، (الكويت، ١٩٨٩). وأما الدراسات التي اهتمت بموضوع الجبل في الرواية العربية فلا نعثر على بحوث مفردة ولكن على مقالات متفرقة وهي قليلة لا تفي بالحاجة إلى فهم علاقة الجبل بالرواية ودوره في تشكيل عالمها الفني والدلالي.

٢) من أبرز هذه الروايات "الجازية والدراويش" للكاتب الجزائري عبد الحميد بن هدوقة، و"جبل موسى" للكاتب العماني عبد الرحيم بهير و"جبل قاف" للكاتب المغربي عبد الإله بن عرفة (ترجمت إلى الإنجليزية).

٣) جماليات المكان، مجموعة، عيون المقالات، الدار البيضاء، ١٩٨٨.

٤) الجازية والدراويش، دار الآداب، بيروت، ١٩٩١، ص ٣٧.

٥) الجازية والدراويش، ص ٣٧.

٦) الجازية والدراويش، ص ٥٢.

٧) الجازية والدراويش، ص ٥.

٨) الجازية والدراويش، ص ٥٦.

٩) الجازية والدراويش، ص ٥٥.

١٠) الجازية والدراويش، ص ٢١.

١١) الجازية والدراويش، ص ٥٥.

١٢) الجازية والدراويش، ص ١٧.

١٣) الجازية والدراويش، ص ٢٤.

١٤) الجازية والدراويش، ص ٥٢

١٥) الجازية والدراويش، ص ٢٩.

١٦) الجازية والدراويش، ص ١٠.

١٧) الجازية والدراويش، ص ٦٢-٦٣.
١٨) الجازية والدراويش، ص ٢٠.
١٩) الجازية والدراويش، ص ٤٨.
٢٠) الجازية والدراويش، ص ١٠.
٢١) الجازية والدراويش، ص ٧٦.
٢٢) الجازية والدراويش، ص ١٩٦.
٢٣) الجازية والدراويش، ص ٢٤.
٢٤) الجازية والدراويش، ص ٣٧.
٢٥) الجازية والدراويش، ص ٤٤.
٢٦) الجازية والدراويش، ص ٦٠.
٢٧) عبد الرحيم وهابي، الاستعارة في الرواية، دار كتارا، الدوحة، ٢٠١٩، ص ١٥٨.
٢٨) جورج لايكوف ومارك جونسن: الاستعارات التي نحيا بها، تر. عبد المجيد جحفة، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، ١٩٩٦، انظر صص ٣٣-٤٠.
٢٩) الجازية والدراويش، ص ٣٧.
٣٠) الجازية والدراويش، ص ٢٩.
٣١) الجازية والدراويش، ص ١٥.
٣٢) الجازية والدراويش، ص ٢٠.
٣٣) الجازية والدراويش، ص ١٦.
٣٤) الجازية والدراويش، ص ٣٦.
٣٥) الجازية والدراويش، ص ١٦.
٣٦) الجازية والدراويش، ص ٥٢-٥٣.
٣٧) الجازية والدراويش، ص ٥٤.
٣٨) الجازية والدراويش، ص ١١-١٢.
٣٩) الجازية والدراويش، ص ١٦.
٤٠) الجازية والدراويش، ص ١٤.
٤١) الجازية والدراويش، ص ١٥.
٤٢) الجازية والدراويش، ص ٢١.
٤٣) الجازية والدراويش، ص ٤٨.

٤٤) الجازية والدراويش، ص ١٥.
٤٥) الجازية والدراويش، ص ٢٠.
٤٦) الجازية والدراويش، ص ٣٧.
٤٧) الجازية والدراويش، ص ٣٧.
٤٨) الجازية والدراويش، ص ٤٨
٤٩) انظر مثلا ص ٣٣٦ من الرواية.
٥٠) عبد الصمد زايد. . . . ص٧٩
٥١) الجازية والدراويش، ص ٣٧.
٥٢) الجازية والدراويش، ص ٦٢.
٥٣) الجازية والدراويش، صص ٦٢-٦٣.
٥٤) الجازية والدراويش، ص ١٦.
٥٥) الجازية والدراويش، ص ٢١.
٥٦) الجازية والدراويش، ص ٢٢.
٥٧) الجازية والدراويش، ص ٥٢.
٥٨) الجازية والدراويش، ص ٥٨.
٥٩) الجازية والدراويش، ص ٦٠.

قائمة المصادر والمراجع:

*العيساوي، عبد السلام. د. ت. البحر في أدب حنا مينة. مرقون. كلية الآداب. تونس. منوبة،
*النصير، ياسين. ١٩٨٠. الرواية والمكان. العراق.
*١٩٨٨. جماليات المكان: مجموعة. عيون المقالات. الدار البيضاء.
*حاجي، الميلود. ٢٠٢٠. المكان في الرواية. بحث في قصصية المكان. تونس. زينب للنشر.
*زايد، عبد الصمد. ٢٠٠٣. المكان في الرواية العربية الصورة والدلالة. كلية الآداب منوبة. تونس. دار محمد علي.
*صالح، صلاح. ١٩٩٧. قضايا المكان الروائي في الأدب المعاصر: القاهرة. دار شرقيات للنشر والتوزيع.
*عبد الله، محمد حسن. ١٩٨٩. الريف في الرواية العربية: الكويت.
*بن هدوقة، عبد الحميد. ١٩٩١. الجازية والدراويش: بيروت. دار الآداب.
*لايكوف، جورج. مارك جونسن. ١٩٩٦. الاستعارات التي نحيا بها: تر. عبد المجيد جحفة. الدار البيضاء. دار توبقال للنشر.
*وهابي، عبد الرحيم. ٢٠١٩. الاستعارة في الرواية: الدوحة. دار كتارا.